دراسة آراء سيبويه الصوتية فى ضوء البحث اللغوى الحديث

مهين حاجى‌زاده*

الملخص

علم الأصوات علم جديد قديم؛ جديد لأنه واحد من فروع علم اللسانيات الذى لايعدو تأسيسه مطلع هذا القرن، على يد اللغوى السويسرى فردينان دوسوسور، وقديم لأنه واحد من العلوم التى تقوم عيها كل لغة. ولمّا كان الأمر كذلک، فقد عنى أصحاب كل لغة بأصواتها منذ أقدم العصور، والعلماء المسلمون أيضا تنبهوا قديما إلى قيمة الصوتيات الكبيرة فى الدرس اللغوى، وبينهم علماء لغويون أفذاذ، لايقلون أهمية عما يعرف الغرب، وغيره اليوم من علماء، أمثال سوسير، وتشومسكى، وياكوبسون، بل قديفوقون هؤلاء فى ميادين مختلفة، من البحث اللغوى العلمى، وفى طليعتهم سيبويه الذى يعد الرائد الحقيقى فى الدراسات الصوتية العربية، وأعماله فى هذا المجال هى الأساس لكل الأعمال الصوتية من بعده.

يحاول هذا المقال إلقاء شىء من الضوء، على تفكير سيبويه الصوتى، وعلى منهجه فى دراسة أصوات اللغة العربية، وطريق تحليلها، وإبراز الجوانب المشرقة فى دراساته، بالنظر إلى أهم النقاط التى ترسم إطار هذا التفكير، وتبيّن حدوده، وأبعاده من وجهة النظر الحديثة، بقصد بيان موقع دراساته الصوتية من الدراسات اللغويين الأجانب المحدثين عن طريق الربط، أو المقارنة.

الكلمات‌الدليلية: التراث الصوتى العربى، علم الأصوات، اللسانيات، سيبويه.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم آذربايجان.

تاريخ الوصول: ١٣٨٨/٩/١٥هـ . ش تاريخ القبول: ١٣٨٨/١١/١٨هـ . ش

المقدمة

لعل من أبرز التطورات التی شهدها العلم فی مطلع القرن العشرین، ظهور علم جدید، جنح إلی دراسة اللغة، دراسة علمیة، ونظر إلیها علی أنها ظاهرة طبیعیة، یمکن أن تخضع لما تخضع له الظواهر الطبیعیة الأخری، من اختبار علمی ینتهی إلی قوانین ثابتة، ونعنی به علم اللسانیات؛ لکن هذا العلم لم یظهر فی میدان العلوم الإنسانیة، لیحتل مکان الصدارة دونما مقدمات. فلقد کانت له جذوره فی أعماق الماضی، فنجد بدایته عند الهنود، والیونان، وعلماء الإسلام، (عرباً أو غیر عرب)، وإذا کان من مؤرخی هذا العلم، من غفل أو تغافل عن دور العلماء المسلمین، فی بناء صرح علم اللسانیات الحدیث؛ وإذا وجد الیوم من یزعم، ویردد أن هذا العلم ولید الحضارة الغربیة، فی أحضانها نشأ، وفی أرضها ترعرع، فإن هذا أو ذاک لاینفی حقیقة حدث تؤیده النصوص الثابتة، قائلة: إن لعلماء الإسلام فضل السبق فی بحث جوانب علم اللسانیات، إذ وصلوا فیها إلی نتائج، یحق لهم أن یفاخروا بها الأمم.

إنّ کثیراً من العلماء، والستشرقین الأجانب، بل من الباحثین العرب المحدثین، یعتقدون أن الصوتیات العربیة، متأثرة ببحوث الأمم السابقة علی العرب کالهند، والیونان، وعنهم نقلوها. (ضیف، ۱۹۶۸م: ۳۲) ولعل ما ساعد علی هذا القول أمران اثنان: هما إهمال المسلمین الدراسات الصوتیة فی عصر الدول المتتابعة، وکون المستشرقین أول من تحدثوا عنها فی عصر النهضة.

وممن تولی الرد علی الآخذین بهذا الرأی کمال بشر، وهو أحد العلماء المختصین، فقال: «فی رأینا أن دراسة العرب لأصوات لغتهم، إنما هی دراسة أصیلة، لیست منقولة فی منهجها أو طریق التفکیر فیها عن غیرهم من الأمم، والقول بأنها ترجع إلی أعمال الهنود، أو الیونان فی دراساتهم الصوتیة، قول تعوزه الأدلة العلمیة، التی تستطیع أن تؤکد هذا الزعم أو تنفیه، علی أن النظر الدقیق فی جملة ما طلع علینا به علماء العربیة فی مجال الأصوات اللغویة، یحملنا علی الجزم بأن هؤلاء العلماء کانوا یصدرون عن عقلیتهم الخاصة، وثقافتهم العربیة.» (بشر، ۱۹۷۵م: ۴۸)

ثم أتى بدليل على صدق قوله يتصل بمنهجهم فى الدراسة الصوتية، فرأى أن هذه الدراسة تقوم على أساس نطقى، كما عند الغربيين، يعنى بالخواص النطقية للأصوات، ووظائف جهاز النطق، وحركات أعضائه عند إخراج الأصوات، وهذا مخالف لما سلكه اليونان، إذ اعتمد هؤلاء أولا، على الخواص السمعية للأصوات، وإذا كان منهج العرب يشابه منهج الهنود عامة، فإن فيه اختلافات كثيرة فى التفصيلات، وهو منهج وصفى، يعنى بدراسة الظاهرة اللغوية فى معزل عن تطوراتها التاريخية، ويخلو من الافتراضات العقلية، والمتاهات الفلسفية، ويقوم على أساس من هم أسس البحث الصوتى اليوم، وهو الملاحظة الذاتية. (المصدر نفسه: ۴۹)

رأى كمال بشر أيضا أن ما قام به العرب له سبق تاريخى وعلمى، وإذا كان الهنود قد سبقهم تاريخيا فى الدرس الصوتى، فإن هذا لاينفى أن يكون العرب روادا فيه، فأبجديتهم – كما يقول – «فيها مبادئ صوتية رائعة، ويتحقق فيها أحدث الآراء فى الدرس الصوتى، إذ أن فيها رمزاً واحداً لكل واحدة صوتية، ثم إن لهم سبقاً فى إدراک معنى الجهاز النطقى، ومعرفة وظيفته، وطبيعته، ولهم السبق أيضا فى ترتيب الأصوات حسب المخارج بدقة، والعناية بتصنيفها، وتقسيمها إلى مجموعات متداخلة. (المصدر نفسه: ۵۰-۵۱)

فحقيقة الأمر، إذن أن دراسات العرب الصوتية تتسم بالأصالة، وفضل السبق، وقد عرف شيئاً من هذا غير واحد من العلماء المنصفين، والباحثين المدققين الأجانب، كالمستشرق برجشترأسر، وفيرث الذى يقرر أن الدراسات الصوتية نشأت فى أحضان لغتين مقدستين هما العربية، والسنسكريتية. (مختار عمر، ۱۹۸۸م: ۱۱۴) وقد اعترف جورج مونين صراحة، بجودة الدرس الصوتى عند العرب فقال: «منذ القرن الثامن الميلادى، كان علماء اللغة فى البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيا، وسواء أوجدوا تلقائياً علماً للأصوات جديراً بأن يذكرنا بالعلامة بانينى، أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه، فتلک مشكلة على حده، ولكن لابدلنا – بادىء ذى بدء– أن نعترف بوجود هذا العلم فى الأصوات وأنه علم فذ ممتاز.» (مونين، ۱۹۷۲م، ج۱: ۲۰۶)

كل هذه الاعترافات أوثق دليل على أن الدراسات الصوتية العربية نشأت نشأه أصيلة، وتطورت تطورا ذاتيا، استجابة لحاجة الناطقين بالعربية والدراسين قواعدها، وقطعت فی ذلک شوطا بعيدا، وجاءت الدراسات الصوتية العربية الحديثة مؤسّسة عليه، ومكملة له.

وهذه الدراسة محاولة لبيان بعض صنيع علماء المسلمين، وعلى رأسهم سيبويه فی جانب توليه اللسانيات الحديثة عناية كبيرة حين تدرس لغة ما، هوالجانب الصوتی، فلقد بات من المعروف أن اللغة تدرس اليوم من خمسه جوانب. إذ ليس بمقدور أحد أن يدرس اللغة من جميع جوانبها دفعة واحدة، وإنما يدرس كل جانب على حدة، ليسهل له روية أبعاده، وتناول جزئياته. وهذه الجوانب المختلفة للدراسة اللغوية تسمى <مستويات الدرس اللغوی> فی مصطلح علماء اللغة المحدثين، ومناهج بحثهم.

وعلى هذا فإن دراسة اللغة، أی لغة تنقسم إلى مستويات أهمها هی:

١. مستوى الأصوات، ويدرس أصوات اللغة من جوانب مختلفة، فإن كان يدرسها من دون النظر إلى وظائفها، بل يحلل الأصوات الكلامية، ويصنفها مهتماً بكيفية إنتاجها، وانتقالها، واستقبالها، فإن علماء اللغة يطلقون عليه اسم <علم الأصوات العام> (phonetics). وإن كان يدرس الأصوات من حيث وظيفتها، فإنهم يطلقون عليه اسم <علم الأصوات الوظيفی> (phonology) وإن كان يهتم بدراسة التغيرات التاريخية فی الأصوات، فإنهم يطلقون عليه اسم <علم الأصوات التاريخی> (diachronic phonetics). (بای، ١٩٧٣م: ۴٣؛ رديني، ٢٠٠٢م: ٣١؛ قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ٢۴)

٢. مستوى الصرف (morphology)، أو مستوى دراسة الصيغ اللغوية، وبخاصة تلک التغيرات التی تعترى صيغ الكلمات، فتحدث معنى جديداً.

٣. مستوى النحو (syntax) الذی يختص بتنظيم الكلمات فی جمل أو مجموعات كلامية، ودراسة تركيب الجملة.

۴. مستوى الدلالة (semantics) الذی يختص بدراسة معانی الكلمات.

۵. مستوى المعجم (lexicography) ويستمد وجوده من علم دراسة تاريخ الكلمات،

وعلم الدلالة. يضاف إلى ذلک اهتمامه ببيان كيفية نطق الكلمة، ومكان تغيرها، وطريقة هجائها، وكيفية استعمالها فى لغة العصر الحديث. (ردينى، ۲۰۰۲م: ۳۲)

والجانب الصوتى هو الأول والأهم، وعليه العمدة فى دراسة الجوانب الأربعة الأخرى، ويدور حوله معظم الدراسات اللسانية المعاصرة. ونحن هنا لسنا بصدد بيان أهميتها، إلا أن الذى يهمنا فى هذا المقام، هو إن العلماء الإسلامية، تنبهوا قديماً إلى قيمة الصوتيات الكبيرة فى الدرس اللغوى، وكان لهذا التنبيه مظاهر متعددة، سنذكر أبرزها ـ كما يعنينا أن نقول: إن بين العرب، والعلماء الإسلامية، علماء لغويين أفذاذاً، لايقلون فى الأهمية عما يعرف الغرب، وغيره اليوم، بل قد يفوقون هؤلاء فى ميادين مختلفة، من البحث اللغوى العلمى، ولعل فى طليعة من نفاخر بهم، العالم سيبويه الذى من أجله صنعنا هذه الدراسة. والذى يهمنا الآن أن نتحدث عما كتبه فى الصوتيات خاصة، بقصد بيان موقعه من دراسات اللغويين الأجانب المحدثين خاصة، فى سبيل إيضاح ما ذكرنا من فضل للعلماء الإسلامية.

نشأة الدراسات الصوتية العربية وتطورها

يرتبط ظهور الدرس الصوتى العربى بنشأة الدراسات اللغوية العربية، التى يمكن أن يورّخ لبدئها بنزول القرآن الكريم وتدوينه، ثم تلاوته، وتعليم قراءته، وإذا كانت الملاحظات اللغوية الأولى قد صدرت من عدد من أولى الأمر والعلماء من الصحابة، والتابعين بصورة شفهية، فإن الجهد اللغوى المنظم بدأ بالأوراق الأربع، التى ذكر ابن النديم أنه شاهدها بخط يحيى بن يعمر، عن أبى الأسود الدوئلى، فيها كلام عن الفاعل والمفعول. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها، حتى انتهى ذلک الجهد، بظهور الكتب الجامعة التى تضم ألفاظ اللغة، على نحو ما نجد فى المعجمات كالعين للخليل، أوتعرض قواعد اللغة على نحو ما نجد فى كتاب سيبويه، وغيره ومن كتب النحويين واللغويين. (قدورى الحمد، ۲۰۰۲م: ۶)

وكانت بواكير الدرس الصوتى العربى قد جاءت مختلطة بالدراسات اللغوية، والنحوية

الأولى، وكان لها قيمة تاريخية وعلمية. أما اتجاهات الدرس الصوتى فقد تعددت، بتعدد مجالات التوظيف فى العلوم العربية والإسلامية، وأول هذه الاتجاهات وأصلها، الاتجاه اللغوى الذى ابتدأه أصحاب المعاجم، فهم أقدم من تحدث عن الصوتيات من العرب، فنجد فى مقدمة معجم العين، ملاحظات عن أصوات العربية التى تنم عن حسّ لغوى دقيق، فلقد أحس الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥ هـ) كثيرا من جوانب المشكلة الصوتية، إذ تحدث عن مخارج الحروف، وصفاتها من همس، وجهر، وشدة، ورخاوة، ونحوها، وعما يحدث للصوت فى بنية الكلمة من تغيير، يفضى إلى القلب، أو الحذف، أو الإعلال، أو الإبدال، أو الإدغام، وذكر عدداً من القوانين الصوتية، وعدداً من المسائل الصوتية، واللهجية، والقراءات. (أنظر: الفراهيدى، ١٩٨٨م، ج١: ٤٧-٦١) ولعل أهم ما يستوقف النظر فى ترتيب الحروف حسب مخارجها، وقد رتبها على النحو التالى:

ع ح هـ خ غ - ق ك - ج ش ض - ص س ز - ط د ت - ظ ذ ث - ل ن - ف ب م - وا ى ء. (الفراهيدى، ١٩٨٨م، ج١: ٤٨)

ونصل إلى النحاة، لنرى أنهم عنوا بالصوتيات بوصفها مدخلاً لدراسة الصرف من إدغام، وإعلال، وإبدال، ونحو ذلك. ولعل خير من يمثل النحاة فى حديثهم عن الأصوات أصدق تمثيل، سيبويه صاحب الكتاب المشهور، الذى يعده كثيرون المصدر الأول لعلم الأصوات العربى. ويستأثر الجزء الرابع من الكتاب بأجلّ هذه المباحث، وهو باب الإدغام الذى استهله سيبويه، بذكر عدد الحروف العربية ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأصولها، وفروعها، وما إلى ذلك مما يدخل فى تكوين النظام الصوتى العربى، وهو الموضوع الذى سنتطرق فى هذا المقال إليها.

وعلى نهج سيبويه تقريباً، سار الزجاجى (فى المائة الرابعة)، والزمخشرى (فى المائة السادسة)، الذى عقد فى كتابه <المفصل> باباً خاصاً أسماه <المشترك> أى ما يشترك فيه الاسم، والفعل، والحرف. كما نجد ابن يعيش (فى القرن السابع الهجرى) فى شرحه <المفصل> وابن الحاجب (فى القرن السابع) فى كتابه <الشافية> ورضى الدين استرآبادى (فى القرن السابع) فى شرح<الشافية>، ينهجون جميعاً نهج سيبويه، ويعتبرون

الأبحاث الصوتيه جزءاً من أجزاء النحو. (أنيس، ١٩٧٩م: ١٠٥، مختار عمر، ١٩٨٨م: ١٠٦)

على أن أول من أفرد المباحث الصوتيه بمؤلف مستقل، ونظر إليها على أنها علم قائم بذاته ابن جنى (٣٩٢ هـ) فى كتابه <سر صناعه الإعراب> الذى بسط فيه الكلام على حروف العربيه: مخارجها، وصفاتها، وأحوالها وما يعرض لها من تغيير، يؤدى إلى الإعلان، أو الابدال، أو الإدغام، أو النقل، أو الحذف، والفرق بين الحرف، والحركة، والحروف الفروع المستحسنة، والمستقبحة، ومزج الحروف وتنافرها وما إلى ذلک. (ضيف، ١٩٦٨م: ٦٣؛ مختار عمر، ١٩٨٨م: ١٠٠-١٠١)

ولاتقتصر جهود ابن جنى الصوتية على ما فى سر الصناعة، وإنما تتعداه إلى كتبه الأخرى، وفى مقدمتها الخصائص، الذى تضمن مادة صوتية غنية، جاء بعضها منثوراً فى تضاعيف الكتاب، وأفرد بعضها الآخر فى أبواب مستقلة، مثل باب فى كمية الحركات، وباب فى مطل الحركات، وباب فى مطل الحروف ... إلخ. (أنظر: ابن جنى، لاتا، ج٣: ١٢٠-١٣٣)

وثانى هذه الاتجاهات مثّله دارسو الإعجاز، والبلاغة، والنقد ممن عرضوا لفصاحة الكلمة، بحسب المخارج، وائتلاف الحروف، وبيان حسن التأليف، أو قبحه. نذكر من هؤلاء الرمانى (ت ٣٨٦ هـ)، وابن سنان الخفاجى (ت ٤٢٦ هـ)، وبهاء الدين السبكى (ت ٧٧٣ هـ)، وغيرهم. (قدور، ٢٠٠١م: ٦٧)

أما ثالث هذه الاتجاهات، وأهمها، وأكثرها، مؤلفات فهو علم التجويد الذى ظهر فى القرن الرابع نتيجة تضافر القراءات من جهة، والدرس الصوتى من جهة أخرى، فى الحقيقة، يظهر استقلال هذا العلم بصورة أكثر جلاء لدى علماء التجويد، الذين خصصوا للمباحث الصوتية المتعلقة بقراءة القرآن الكريم، كتباً مستقلة عن كتب القراءات، وأطلقوا عليها اسم التجويد، وكان بدء ذلک فى القرن الرابع الهجرى على يد أبى مزاحم الخاقانى الذى نظم قصيدة فى حسن أداء القرآن، قال عنها ابن الجزرى: إنها أول مصنف فى علم التجويد. وتبين الكتب المؤلفة فى علم التجويد فى القرن الخامس التى وصلت إلينا، اكتمال صورة هذا العلم، وشمول مباحثه، دراسة أصوات اللغة من جميع الوجوه. (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م: ٨)

وظلت المباحث الصوتية تحتل مكانة بارزة فی كتب النحو، وكتب الصرف إلى عصور متأخرة، أما فی كتب علم التجويد، فإن الاهتمام بها قد استمر على نحو واضح، لاسيما فی شروح المقدمة الجزرية بأبی الخير محمد بن الجزری (۸۳۵ هـ)، وعلى يد عدد من العلماء المتأخرين الذين عنوا بتعليم قراءة القرآن الكريم، مثل محمد المرعشی الملقب بساچقلی زاده (ت ۷۳۷ هـ) الذی ألف كتابه <جهد المقل>، وشرحه بكتابه <بيان جهد المقل> فی علم التجويد، وقد تضمن هذا الكتاب، وشرحه دراسة عميقة، وواسعة لأصوات العربية، تلتقی مع كثير من الحقائق الصوتية التی أثبتتها الدراسات المعاصرة. (المصدر نفسه: ۸)

ويأتی الاتجاه الرابع، وهو اتجاه علمی، ثمرة للترجمة المباشرة عن الطب اليونانی، وقد مثّل هذا ابن سينا (ت ۴۲۸ هـ) فی رسالته <رسالة أسباب حدوث الحروف>. وقد عرض فيها جوانب فيزيائية تتصل بالصوت، وجوانب تشريحية تتعلق بأعضاء النطق الرئيسية، كاللسان، والحنجرة، وجوانب ترتبط بآلية إصدار الأصوات. وفی الرسالة جوانب أخرى، فيها موازنات بين الأصوات العربية، وبعض الأصوات فی اللغات الأعجمية التی عرفها ابن سينا. وتأتی الرسالة، مخالفة لتطور الدرس الصوتی فی اتجاهاته الثلاثة السابقة، إذ بدت استجابة لنوع من التعالی بإظهار معرفة جديدة لاقبل اللغويين، ومن تقيلهم من علماء التجويد، والبلاغة بها. تمتاز الرسالة بتطور فی الأسلوب العلمی من خلال توليد المصطلحات، وضبط التعبير، والابتعاد عن خصائص اللغة الأدبية. (قدور، ۲۰۰۱م: ۶۸)

وهكذا انتقلت البحوث الصوتية على ما يبدو من الميدان اللغوی الدقيق، إلى ميدان البحث فی مناهج الأداء القرآنی، وظلت تتابع سيرها عبر الزمان فی هذا الميدان، بصورة أو بأخرى حتى يومنا هذا. ونشطت دراسة أصوات العربية فی عصرنا على أيدی المستشرقين أولاً، ثم على يد الباحثين العرب، بعد ذلک وكانت حصيلة ذلک كله عشرات الكتب، والبحوث التی أغنت علم أصوات العربية.

أصوات العربية فى كتاب سيبويه

تعد الأصوات «اللبنات التى تشكل اللغة، أو المادة الخام، التى تبنى منها الكلمات، والعبارات؛ فما اللغة إلا سلسلة من الأصوات المتتابعة.» (مختار عمر، ١٩٧٦م: ٣٤٧)

وقد تنبه سيبويه إلى أهمية الصوت اللغوى، وأدرک أهمية النظام الصوتى، وكان على وعى تام بأنّ دراسة الأصوات مقدمة، لابدّ منها لدراسة اللغة، لذلک فقد تناول بالوصف الصوت المنطوق، فبين عدده، وحدّد مخرج كل صوت، وما يصحبه من حركات أعضاء النطق، لأن غرض الباحث فى علم الصوت، هو أن يبين ما فى نطق الصوت من حركات عضوية، وفى ضوء هذه الحركات يتم تحديد الصوت المنطوق. (حسان، ١٩٥٨م: ١١٩) ويعد بيان عدد أصوات اللغة، وتحديد مخارجها، وصفاتها، والتمييز بين طبيعة نطقها داخل بنية الكلام عملاً وصفياً، ويقسم سيبويه الأصوات العربية إلى أصول، وفروع؛ فأصول الأصوات عنده تسعة وعشرون صوتاً، وهى:

ء هـ أ ع ح غ خ ق ک ج ش ی ض ن ل ر ط د ت ز س ص ظ ذ ث ف ب م و.

الحروف الفرعية

ذكر سيبويه أن العرب نطقت حروفاً، هن فروع من الحروف الأصول التسعة والعشرين، وهذه الحروف الفروع «يؤخذ بها، وتستحسن فى قراءة القرآن والأشعار، هى: النون الخفيفه، والهمزه التى بين بين، والألف التى تمال إمالة شديدة، والشين التى كالجيم، والصاد التى تكون كالزاى، وألف التفخيم.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٢)

والأصوات غير مستحسنة، أو مستهجنة عند سيبويه ثمانية، «ولاتستحسن فى قراءة القرآن، ولا الشعر، ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته وهى: الكاف التى بين الجيم والكاف، والجيم التى كالكاف، والجيم التى كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التى كالسين، والطاء التى كالتاء، والظاء التى كالثاء، والباء التى كالفاء.» (المصدر نفسه: ٤٣٤)

يظهر من وصف سيبويه لهذه الأصوات، أنه كان على وعى تام، بأن الحرف الواحد

قد يشتمل على أكثر من صوت واحد، يأتی كل صوت منه فی بيئة صوتية خاصة، فالتنوعات الصوتية للحرف الواحد ليست وحدات صوتية (صويتا) مستقلة، كما هی الحال فی (النون الخفيفة) على سبيل المثال، فهی تنوع صوتی للصوتية (النون) التی تشتمل على عدد من الأصوات حتى أنّ بعض أصوات النون كالذی فی (ينْظُر) ينطق بإخراج اللسان كإخراجه فی <الظاء>. (حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٨٩-٩٠) إذن هناك تشابهاً بين بعض أسس نظرية الفونيم[١] المتعلقة باعتبار بعض الاختلافات النطقية، تنوعاً موقعياً لصوت واحد، وبين تقسيم الأصوات إلى أصول وفروع عند سيبويه. وقول سيبويه إن الحروف الفرعية لاتتبين إلا بالمشافهة، يشير إلى إدراک علماء العربية، أن هذه الأصوات تنوع موقعی أو لهجی لأصوات العربية، وإنها لاتؤدی إلى تغيير معانی المفردات، ومن ثم لم يخصص لها فی الكتابة الهجائية رموز مستقلة. (قدوری الحمد، ٢٠٠٢م: ٧٣)

إلا أن استعمال سيبويه لمصطلح (الحروف) بدلاً من (الأصوات)، لايعنی أنه لم يكن يفرق بين اصطلاحی الحرف والصوت، كما يرى البعض إذ أن ما ذكره سيبويه من فرق بين الحروف الأصول والفروع، يدل على معرفة تامة بما يعنيه كل من الحرف والصوت. (حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٩٠)

مخارج الأصوات عند سيبويه

ذكر سيبويه للأصوات العربية ١٦ مخرجاً، وهذه المخارج مرتبة من الحلق إلى الشفتين، وإذا كان الوصف الصوتی اليوم يبدأ من الشفتين إلى الحلق انطلاقاً ممايكون أسهل فی الرؤية، فإن القدامى جميعاً منذ الخليل، وسيبويه قد اتبعوا هذا الترتيب تماشياً، ولاشک مع اتجاه مجری النفس إذ يعبر جهاز التصويت.

قال سيبويه: «ولحروف العربية ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة:

١. وهی نظرية صوتية حديثة، ومرتبطة بالدرس الصوتی الغربی خاصة. إن نظرية الفونيم – مهما كان تفسيرها – قد انبثقت من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوعة، ومن محاولة وضع ألفبائيات اللغات المختلفة. فقد لاحظ العلماء أنه على الرغم من أن الأصوات المستخدمة فی الكلام تعد ذات تنوع غير محدود، فإن المتكلمين، والسامعين يكونون عادة واعين بعدد صغير فقط من الأنماط االصوتية المستقلة. (مختار عمر، ١٩٧٦م: ١٤٤)

١. فأقصاها مخرجاً: الهمزة، والهاء، والألف.

٢. ومن أوسط الحلق مخرج العين، والحاء.

٣. وأدناها مخرجاً من الفم: الغين، والخاء.

٤. ومن أقصى اللسان، وما فوقه من الحنک الأعلى مخرج القاف.

٥. ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً، ومما يليه من الحنک الأعلى مخرج الكاف.

٦. ومن وسط اللسان بينه، وبين وسط الحنک الأعلى مخرج الجيم، والشين، والياء.

٧. ومن بين أول حافة اللسان، ومايليها من الأضراس مخرج الضاد.

٨. ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين مايليها من الحنک الأعلى وما فوق الضاحک، والناب، والرباعية، والثنية مخرج اللام.

٩. ومن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

١٠. ومن مخرج النون غير أنه أدخل فى ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء

١١. وممّا بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء، والدال، والتاء.

١٢. ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاى، والسين، والصاد.

١٣. ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء.

١٤. ومن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء.

١٥. ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة. (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٣)

ليس من خلاف بين سيبويه، وبين الدارسين اليوم فى تصنيف الأصوات إلّا فى حالات قليلة، يمكن التجاوز عن أكثرها لأن هذا التباين يرجع إلى عدد من الأسباب أهمها:

١. التقارب والتداخل بين مخارج النطق، فليس هناک حدود فاصلة فصلاً تاماً بين بعض هذه المخارج ومن ثم فإنه من الجائز أن تنسب ومجموعة من الأصوات إلى مخرج معين، وينسبها باحث آخر إلى مخرج آخر قريب منه، أو متصل به، ومتداخل

معه. (بشر ۱۹۷۱م: ۱۹؛ بشر، ۲۰۰۰: ۱۹۱) هذا یفسر لنا الاختلاف فی المخرج (ل ن ر). فسیبویه کان یعدها من ثلاثة مخارج، بینما عدها معظم المحدثین من مخرج واحد.

۲. قد یکون جانب من التباین راجع إلی الخطأ فی تحدید مخرج عدد من الأصوات، فإن الدارسین تتفاوت خبراتم ودقة ملاحظتهم، فربما حدد بعضهم مخرجاً للصوت، وقدیکون ذلک التحدید غیر صحیح، أو غیر دقیق. (بشر، ۲۰۰۰م: ۱۹۱)

۳. تطور الأصوات: فإن بعض الأصوات قد تغیر نطقها، فلیس غریباً أن یعدها علماء العربیة من مخرج، ویعدها المحدثون من مخرج آخر. ومن ذلک مخرج <الضاد>، فإن سیبویه، وغیره من علماء العربیة، والتجوید، یجعلون مخرجه من حافة اللسان لایشارکه غیره فی مخرجه، ویعده أکثر المحدثین من مخرج (ت د ط)، بناء علی طریقة نطقه فی قراءة القرآن فی زماننا. (قدوری الحمد، ۲۰۰۲م: ۸۹)

أما ترتیب سیبویه للمخارج فنلاحظ علی مایأتی:

۱. إن سیبویه لم یشر إلی الحنجرة فی تصنیفه هذا، واکتفی بالإشارة إلی ما سمّاه الحلقی، وقسّمه إلی ثلاثة أقسام: أقصاه ومنه <الهمزة>، و<الألف>، و<الهاء> وأوسطه ومنه <العین>، و<الحاء>، وأدناه ومنه <الغین>، و<الخاء> فکأنّ أقصی الحلق عنده یقابل الحنجرة، أو منطقتها فی العرف الحدیث، وأوسطه یناظر الحلقی، وهو یمثل المنطقة الواقعة بین الحنجرة، والفم، وأدناه یعنی <أقصی الحنک بالتعبیر المعاصر>، علی أنّ قبولنا لهذا التفسیر من سیبویه، کان یوجب علیه أن تعدّ <القاف>، حلقیة لأنهما (بصورتها الفصیحة الیوم)، من منطقة سابقة علی <أقصی الحد> الذی یقابل أدنی الحلق عنده، وهی بهذا الوصف أعمق فی المخرج من <الغین>، و<الخاء>، ولنا هنا أن نفترض أن سیبویه، لم یعد <القاف> حلقیة، أو من أدناه، لأنه کان ینظر إلی <الجاف> (G) لا إلی القاف (g)، و<الجاف> من موقع <الغین> و<الخاء> أو من موقع تال لها. (بشر، لاتا: ۲۲۸)

۲. خلط مخارج الأصوات الصائتة، بمخارج الأصوات الصامتة، فقد ذکر <الألف> مع <الهمزة> و<الهاء>. إن أبجدیة سیبویه علی ما نفهم، هی أبجدیة الأصوات الصامتة،

أو الحروف الصحاح، بعبارتهم و<الألف> فى هذا السياق، لايمكن أن تكون إلا حركة، هى الفتحة الطويلة، ذكرها هنا، كان يوجب عليه ذكر <الواو> و<الياء> الممدودتين، أو الحركتين، ولكنه لم يفعل، ومن ثم جاز لنا أن نعترض عليه من جهتين:

١. ليس للألف مكان فى هذه الأبجدية لأنها حركة خالصة.

٢. وعلى فرض قبول وصفها فى هذه الأبجدية، على ضرب من التسامح فليس هذا موضعها. أنها ليست من منطقة <الهمزة> أو أية منطقة أخرى، يخرج منها حرف صامت. إنّ <الألف> بوصفها حركة إنما ينسب نطقها إلى وضع اللسان، وجزء معين منه، هو وسطه تقريباً. (المصدر نفسه: ٢٢٩)

٣. ذكر سيبويه (أقصى الحلق)، وجعله مخرجاً لثلاثة أصوات، هى (ء هـ ا) وقد اتضح للدارسين اليوم أن أقصى الحلق، يشير إلى موضع الحنجرة، التى تضم الوترين الصوتيين، اللذين لهما شأن فى نطق الأصوات الثلاثة، والأصوات الأخرى، ونسبة هذه الأصوات إلى الحنجرة، أدق من نسبتها إلى أقصى الحلق.

٤. لم يعُد تحديد سيبويه مخرج <الضاد> بأول حافة اللسان، ومايليها من الأضراس مطابقاً، لنطق <الضاد> عند المحدثين، وهو عند المحدثين <أسنانى لثوى>. (أنظر: حسان، ١٩٧٩م: ١٢٠؛ مختار عمر، ١٩٧٦م: ٢٦٩)

على أن هذا السلوك الذى سلكه سيبويه هنا، قد يكون له ما يفسره، وهو احتمال أن النطق القديم لهذا الصوت (الضاد)، يختلف عما يمارسه اليوم. (أنظر: مخزومى، ١٩٨٦م: ١٠٢؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٤٨-٤٩)

٥. جعل سيبويه المخرج السادس عشر للنون الخفيفة، وهى أحد الأصوات الفرعية المستحسنة الخمسة التى ذكر أنها كثيرة فى كلام العرب، وتستحسن فى قراءه القرآن، والأشعار، هذه النون فرع عن النون الأصلية، ويمكن الاكتفاء بمخرج النون الأصلية. (بشر، ٢٠٠٠م: ١٨٨)

وأما ليس هناك فرق بين سيبويه، والدرس الصوتى الحديث فى توصيف مخارج بقية الأصوات مع الاختلاف فى التسمية. وهذا الفرق القليل بين سيبويه، والمحدثين فى

تحديد مخارج الأصوات التى أشيرت إليها، يعزى إلى استعانة المحدثين بأجهزة الصوت الحديثة، والاستفادة من علم تشريح الأعضاء.

صفات الأصوات

إن تحديد مخرج الصوت، لايكفى وحده لتوضيح خصائصه التى تميزه عن غيره من الأصوات، ذلک لاشتراک أكثر من صوت فى المخرج الواحدة ..، وهناک عناصر أخرى فى العملية النطقية، تسهم فى إعطاء الصوت خصائصه المميزة له، ويشكل المخرج أحد تلک العناصر، وهو بمثابة المكان الذى تحدث فيه تلک العملية المركبة من عدد من الأنشطة لأعضاء آلة النطق.

وقد اصطلح علماء العربية، والتجويد على تسمية ما يصاحب ما تكون الصوت فى مخرجه من أونشطه أعضاء النطق المختلفة بالصفات، ويعرفون الصفة بأنها كيفية عارضة للحرف عند حصوله فى المخرج، وتتميز بذلک الحروف المتحدة بعضها عن بعض. (قدورى الحمد، ۲۰۰۲م: ۹۶)

يضم التراث العربى مباحث واسعة عن صفات الحروف، وتصنيفها على وفق تلک الصفات، وأقدم دراسة لصفات الحروف فى العربية، وأهمها ما ورد فى (الكتاب) لسيبويه، استعمل سيبويه طائفة من المصطلحات التى وصف بها أصوات الحروف العربية، واعتمد فى ذلک على معيار تحكم جهاز النطق بالهواء الخارج من الفم، كالمجهور، والمهموس، والشديد، والرخو، وما بينهما، والاطباق، والانفتاح، والاستعلاء، والاستفال، والقلقلة، والصفير، والتكرار، والانحراف.

المجهور والمهموس

من المعروف أن سيبويه لم يشر فى بحوثه إلى أوضاع الأوتار الصوتية التى تعدّ الأساس الأول، والأخير فى الحكم على الأصوات بالجهر، والهمس، ولكنه مع ذلک استطاع بطريقته الخاصة، أن يقسم أصوات العربية الصامتة إلى مجهورة، ومهموسة،

ووصل من ذلک إلى نتائج تتفق فى مجموعها مع نتائج الدراسات الصوتية الحديثة.

وصف سيبويه أصوات المجهورة بقوله: «فالمجهورة: حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ويجرى الصوت.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٤) ثم ذكرأن الحروف المجهورة فى اللغة العربية تسعة عشر حرفاً. قال: «فأما المجهورة فالهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاى، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وأما الحروف المهموسة فقد وصفها بأنها حرف «أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفس معه.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها) وجعل عدد الحروف المهموسة عشرة وهى: «الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

ضابط الجهر، والهمس عند سيبويه، هو جريان النفس مع الحرف أو توقفه. فإذا جرى النفس مع النطق بالحرف كان مهموساً، وإذا منع النفس من الجريان حتى ينتهى النطق كان مجهوراً.

والصوت المجهور عند المحدثين، الذى يسمونه Voiced هو الذى يهتز أو «يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به.» (بشر، ١٩٧١م: ٨٧) وليس معنى ذلک انعدام الذبذبات من النفس الذى معه، ولكن المراد بهمس الصوت، هو صمت الوترين الصوتيين معه.» (أنيس، ١٩٧٩م: ٢٠) وسيبويه وإن لم يكن على معرفة بدور الوترين الصوتيين فى حدوث الجهر، والهمس، ولكنه عرف أهم مظاهره فى الصوت المجهور، حيث وصف المجهور «بأنه متمكن مشبع فيه وضوح وفيه قوة، وتلک هى الصفة التى يشير إليها الأروبيون بقولهم (sonority).» (المصدر نفسه: ١٢٣-١٢٤)

وكان سيبويه أول من فرق بين المجهور، والمهموس من علماء العربية يقول: «وإنما فرق بين المجهور، والمهموس أنک لاتصل إلى تبيين المجهور، إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر. فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر، ويجرى فى

الحلق ... وأما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها، وذلک مما يزجى الصوت، لم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم فی المجهورة، فأخرج الصوت من الفم ضعيفاً. والدليل على ذلک أنک إذا أخفيت همست بهذه الحروف، ولاتصل إلى ذلک فی المجهورة، فإذا قلت: شخص، فإن الذی أزجی هذه الحروف صوت الفم، ولكنک تتبع صوت الصدر هذه الحروف بعدما يزجيها صوت الفم، ليبلغ ويفهم الصوت. فالصوت الذی من الصدر هاهنا نظير الصوت الذی ترفعه بعد ما يزجی صوت الصدر، ألا ترى أنک تقول: قام، فإن شئت أخفيت، وإن شئت رفعت صوتک، فإذا رفعت صوتک فقد أحدثت صوتاً آخر.» (قدورى الحمد، ۱۹۸۶م: ۱۲۹-۱۳۰؛ أنيس، ۱۹۷۹م: ۱۲۱-۱۲۲)

وهذا النص «يتضمن آراء قيمة فی الدراسة الصوتية تتفق مع أحدث النظريات الحديثة إلى حد كبير. فسيبويه يرشدنا هنا إلى وسيله أخرى لتمييز المجهور من المهموس، وذلک عن طريق إخفاء الصوت، وأنه يمكن هذا الإخفاء مع المهموسات دون أن تفقد معالمها. أما الإخفاء فی المجهورات فيترتب عليه أن الحرف تضيع صفته المميزة، فلانسمع الدال دالاً حينئذ، وإنما نسمع صوتاً آخر هوالتاء.» (أنيس، ۱۹۷۹م: ۱۲۱)

إذن أساس التمييز بين المجهور والمهموس عند سيبويه فرق بين صوت الصدر فی المجهور، حيث يربطه بقوة ضغط الهواء واعتراض طريقه، وبين صوت المخارج فی الفم التی تتكون منه الأصوات، ويربطه بضعف ضغط الهواء، والسماح له بالمرور. (ردينى، ۲۰۰۲م: ۱۸۴) أما أساس هذا التقسيم عند المحدثين، فهو ذبذبة الأوتار الصوتية، وعدمها داخل الحنجرة، وسيبويه وإن لم يكن على معرفة بدور الوترين الصوتيين فی التحكم بطبيعة الصوت، لم تكن نتائج وصفه بعيدة عن وصف المحدثين، لأصوات المجهورة، والمهموسة التی جاءت مطابقة لوصفه لها، وقع الخلاف بين المعاصرين، وسيبويه فی عدّه <القاف، والطاء، والهمزة> من الأصوات المجهورة على حين أن هذه الأصوات الثلاثة ليست مجهورة بحال من الأحوال فی النطق الحاضر للغة العربية، وعلى أن هذا الخلاف يمكن تفسيره .

أما <الطاء> فيرى المحدثون، أنها مهموسة اليوم، ومجهورة بضابط سيبويه، ويرجح

إبراهيم أنيس أن صوت <الطاء> قد طرأ عليه تغيير حيث يرى «أن صوت الطاء ـ كما وصفها سيبويه – كان يشبه الضاد الحديثة لدى المصريين.» (أنيس ١٩٧٩م: ٦٢) واستند فى رأيه إلى عبارة سيبويه: «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٦) أى كالضاد المصرية.

أما صوت الهمزة، فقد ذهب سيبويه، وعلماء العربية إلى أنه مجهور، واختلف المحدثون فى صفته، فبعضهم قال: إنما مهموسة، وتأتى جهة الهمس فى هذا الصوت من أن إقفال الوترين الصوتيين معه لايسمح بوجود الجهر فى النطق. (حسان، ١٩٧٩م: ٩٧؛ كانتينو، ١٩٩٦م: ١٢٣) ووصفها آخرون بأنها ليست مجهورة ولامهموسة، لأن وضع الوترين حال النطق بهما لايسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر أو الهمس. (سعران، ١٩٦٢م: ١٧١؛ بشر، ١٩٧١م: ١٤٢؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٩١)

أما <القاف> فهو صوت مهموس عند المحدثين. ويفسر كمال بشر اختلاف الموجود بين سيبويه والمحدثين قائلاً: «والقول بأن <القاف> مجهورة يمكن تفسيره بأن سيبويه كان يصف نطقاً بيئياً معيناً يتفق مع نطق هذا الصوت فى اللهجات الحديثة فى أكثر البلاد العربيه. فهم ينطقونه حنكياً قصياً مجهوراً (G) وربما يؤيد هذا الاحتمال أن سيبويه لم ينسب <القاف> إلى اللهاة، وإنما نسبها إلى أقصى الحنک أو أقصى اللسان (كما عبر هو) وهو موضع نطق <الكاف> أو فى أطاره، وهذا الموقع إنما يناسب <الجاف> لا<القاف> أو لعل سيبويه عاملها معاملة الجاف (گ) الفارسية.» (بشر، لاتا: ٢٢٧ –٢٢٨)

پرتال جامع علوم انسانی

الشدة والرخاوة

تصنف أصوات العربية فى التراث الصوتى العربى بناء على أساس درجة الانفتاح أو نوع الاعتراض على ثلاثة أنواع هى:

أ. الشديدة، ويسميها كثير من المحدثين الانفجارية (Plosives) أوالوقفات (Stops).

ب. الرخوة، ویسمیها کثیر من المحدثین الاحتکاکیة.
ج. المتوسطة، أو البینیة، أی بین الشدة والرخوة.

أ) الأصوات الشدیدة

تتکون الأصوات الشدیدة (الانفجاریة) من اجتماع أمرین: الأول: حبس النفس الخارج من الرئتین حبساً تاماً فی موضع ما من آلة النطق، فیضغط الهواء خلف ذلک الموضع. والثانی: إطلاق النفس المضغوط بانفصال العضوین انفصالاً سریعاً، فیندفع الهواء محدِثاً صوتاً انفجاریاً. (قدوری الحمد، ۲۰۰۲م: ۱۱۰)

عرف سیبویه الصوت الشدید بأنه «الذی یمنع الصوت أن یجری فیه والحروف الشدیدة هی: الهمزة، القاف، الکاف، الجیم، الطاء، التاء، الدال، الباء.» (سیبویه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۴)

یبدو أن مفهوم سیبویه للشدید یتطابق مع مفهوم المحدثین، یدل علی ذلک قوله وهو یتحدث عن <الطاء> و<الدال>: «لأنها حصرت الصوت من موضعها کما حصرته الدال.» (المصدر نفسه: ۴۶)

والملاحظ أن الأصوات التی عدّها سیبویه شدیدة هی تلک التی یسمیها الدرس الصوتی الحدیث <وقفات> أو <الانفجاریة> باستثناء حالتین هما:

۱. أخرج سیبویه <الضاد> من الأصوات الشدیدة، لأنه یصف الضاد الرخوة علی حین عدّها المعاصرون انفجاریة لانطباق صفات الانفجاریة علیها دون أدنی خلاف.

یقول کمال بشر: «فلعل سیبویه هنا کان صادقاً فی ملاحظته، حیث کان یتکلم عن <ضاد> مختلفة عن تلک التی نمارسها فی مصر. وربما یؤید هذا الزعم جملة من النصوص أوردها فی کتابه ومن أهمها قوله: لولا إطباق لصارت <الطاء> <دالاً> و<الصاد> <سیناً> و<الظاء> <ذالاً> وأخرجت <الضاد> من الکلام معناه أنه لیس فی العربیة – علی رأیه – نظیر غیر مطبق للضاد، علی حین أن <الدال> نظیرها المرقق فی نطقنا.» (بشر، لاتا: ۲۳۰)

٢. أما <الجيم> فقد وصفها سيبويه بأنها صوت شديد، على حين من المحدثين يذهب إلى أنه صوت مركب يجمع بين الشدة، والرخاوة فى نطقه. فقد لوحظ أن انفصال وسط اللسان عن الغار فى أثناء النطق بالجيم لايحدث فجأة، كما يحدث فى نطق الأصوات الشديدة، بل يتم الانفصال ببطء مما يجعل آخر الصوت تشوبه شائبة من الرخاوة أو الاحتكاكية. (أنظر: حسان، ١٩٧٩م: ١٠٣؛ سعران، ١٩٦٢م: ١٨٢، بشر، ١٩٧١م: ١٦)

ولما كانت اللاحقة الاحتكاكية التى تتبع صوت الجيم غير بارزة كثيراً، فإن وصف سيبويه لصوت الجيم بالشدة يبدو مقبولاً، ولايستوجب تخطئتهم، لاسيما أن من علماء الأصوات المحدثين من يرفض الاعتراف بالطبيعة المركبة لصوت الجيم، ويفضلون النظر إليه باعتباره صوتاً انفجارياً (شديداً). (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م: ١١٢)

ب) الأصوات الرخوة

الصوت الرخو (الاحتكاكى) وهو الذى لا ينحبس الهواء فى مجراه حبساً تاماً، وذلک بأن يضيق النفس مجرى باقتراب عضوين من أعضاء آلة النطق نحو بعضهما فى مخرج الحرف دون أن يقفلا المجرى، فيحدث النفس فى أثناء مروره بمخرج الصوت حفيفاً مسموعاً، تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى. (كانتينيو، ١٩٦٦م: ٢٤، أنيس، ١٩٧٩م: ٢٣)

وكان سيبويه قد جعل الحروف الرخوة ثلاثة عشر حرفاً هى: «هـ ح غ خ ش ص ز س ظ ث ذ ف.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٤) والأصوات التى عدّها سيبويه رخوة، هى التى أطلق عليها فى الدرس الصوتى الحديث، الأصوات الاحتكاكية، باستثناء حالتين:

١. أنه أخرج <العين> من الأصوات الرخوة وجعله متوسطاً (بين الشدة والرخوة) على حين حكم عليها النظر الحديث بأنها احتكاكية، يعتقد كمال بشر بأن «فى صوت <العين> شبهة، إذ هى أقل أصوات الاحتكاكية احتكاكاً.» (بشر، ١٩٨٠م: ١٢١) ومن ثم نرى أن هناک مسوغاً لحيرة سيبويه فى الحكم عليها، وعدها صوتا متوسطا.

٢. أدخل <الضاد> ضمن الأصوات الرخوة، كما سبق الإشارة إليها.

ج) الأصوات المتوسطة

وهی تلک الأصوات التی لاتندرج فی الأصوات الشديدة، ولا الرخوة، لطبيعة شكل اعتراض النفس فيها، وهی تضم <الراء، اللام، الميم، النون> ويطلق الدارسون المحدثون على هذه الأصوات الأربعة صفة الأصوات المتوسطة أو البينية. من الجدير بالذكر أن علماء العربية منذ القديم قد أدركوا أن لأصوات <لم نر> أی (ل م ن ر) سمات معينة، ترشحها لتشكيل صنف خاص فی منظومة الأصوات العربية، وهذا ما سلكه بالفعل شيخهم سيبويه، فبعد أن صنف سيبويه الأصوت إلى قسميها الرئيسيين – أی الأصوات الشديدة والأصوات الرخوة – انتحى نحو هذه الأربعة: <لم نر> وأفرد لها إشارات خاصة، إدراكاً منه أن لها ذوقاً نطقياً مختلفة، وأن لها سمات لاتؤهلها للانضمام إلى واحد من هذين الصنفين، فهذه الأصوات – وإن اختلفت فيما بينها فی بعض الخواص كالمخرج مثلاً – تشترک فی مجموعها فی ملمح يميزها من بقيه الأصوات الصامتة، هذا الملمح المميز يمكن فهمه من عبارات عند وصفه لها، يقول سيبويه: «ومنها المنحرف[1]، وهو حرف شديد جری فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة، وهو اللام، وإن شئت مددت فيها الصوت، وليس كالرخوة لأن طرف اللسان لايتجافی عن موضعه وليس يخرج الصوت من موضع اللام، ولكن من ناحيتی مستدق اللسان وفويق ذلک.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٤٣٥)

ويستمر سيبويه متنقلاً إلى <النون> و<الميم> فيقول: «ومنها حرف شديد يجری معه الصوت، لأن ذلک الصوت غنة[2] من الأنف، فإنما تخرجه من أنفک واللسان لازم لموضع الحرف، لأنک لو أمسكت بأنفک لم يجر معه الصوت، وهو النون، كذلک الميم.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

١. وصف اللام بالانحراف يستند إلى ما تقدم من أن النفس ينحرف إلى الجانبين عند النطق به، ويستخدم كثير من المحدثين مصطلح <جانبی> فی وصف اللام، وهوعين معنى وصفه بالانحراف لدى سيبويه.

٢. الغنة الصوت الذی يخرج من الأنف. وترد فی الكتاب سيبويه كلمة الخيشوم مكان كلمة الأنف (ج٤/٤٣٤) وأكثر الأصواتيين المحدثين يسمون هذه الصفة بالأنفية، نسبه إلى الأنف، متأثرين بالمصطلح الغربی (Nasal) ويبدو أن تسمية علماء العربية تستند إلى الأثر السمعی لهذه الصفة، وتسمية المحدثين تسند إلى موضع صدورها، وأصوات الغنة (أی الأنفية) فی العربية صوتان هما النون، والميم.

أما بالنسبة للراء فيقول سيبويه: «ومنها المكرر، وهوحرف شديد يجرى فيه الصوت لتكريره، وانحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء.» (المصدر نفسه: الصفحة نفسها)

وتفسير كلام سيبويه هو أن اللام، والنون، والميم أصوات شديده من حيث إن الهواء عند إصدارها يقف عند نقطة النطق، ولكن هذا الهواء فى الوقت نفسه يخرج أو يجرى بعبارة سيبويه من منافذ أخرى، تتمثل هذه المنافذ فى جانبى الفم كما فى حال اللام، وفى الأنف فى حال النون، والميم. ومعنى هذا أن هذه الأصوات الثلاثة، تقع فى إطار الأصوات الشددية من جانب، ولكنها مع ذلک تنفرد من جانب آخر بسمات نطقية أخرى مهمة، وهى جريان الهواء، وخروجه حراً طليقاً من منافذه عند النطق بها، بدلاً من خروجه منفجراً من موضعه، أى من نقطه النطق بعد الوقفة كما هو الحال فى الشديدات، أى فى الأصوات الشديدة، وكذلک الحال مع <الراء>، حيث يحدث عند النطق بهذا الصوت وقوف الهواء عند مخرجه، وجريان له وخروج، وان كان هذا الوقوف وذاک الجريان يحدثان متكررين، ويؤخذ من هذه السمة، سمة جريان الهواء وخروجه من منافذه، (سواء أكان ذلک بحرية تامة، كما فى اللام والنون والميم، أم بحرية نسبية كما فى الراء) – يؤخذ من هذه السمة أمر غاية فى الأهمية، ذلک أن هذه الأصوات الأربعة (والثلاثه الأولى منها بوجه خاص)، على الرغم من شدتها – أى وقوف هوائها عند النطق– تنحوبسمتها تلک – وهى سمة جريان الهواء – تنحو نحو الأصوات الرخوة أو تكاد تشبهها ولكنها ليست منها، إنما تنحو نحوها أوتكاد تشبهها فى ملمح واحد فقط، وهو مطلق مرور الهواء، وخروجه من مخرج ما، لا وقوفه، كما هو الحال فى الأصوات الشديدة، ولكن هناک فرقاً – وهو فرق كبير – ويظهر هذا الفرق فى كيفيه خروج الهواء، ونوعية مروره، فبينما يخرج هواء الأصوات الأربعة، ويجرى فى منافذه حراً طليقاً دون عائق، سواء أكان الجريان مستمراً كاملا فى اللام، والنون، والميم، أم كان منقطعاً كما فى الراء، يخرج هواء الأصوات الرخوة متعسراً معوقاً عوقا جزئيا لمروره من منافذ ضيقة من الفم، تسمح للهواء بالمرور، وإن بشىء من العسر، بحيث يحتک بأعضاء النطق ويحدث

حفيفاً مسموعاً. (بشر، ۲۰۰۰م: ۳۵۱ -۳۵۲)

ولعل انتحاء هذه الأصوات الأربعة الشديدة نحو الأصوات الرخوة، وظهور اقترابها منها فی خاصة مطلق مرور الهواء لا انفجاره بعد الوقفة، هو الذی دفع علماء العربية فيما بعد سيبويه إلى تسميتها بالأصوات البينية، أو الأصوات المتوسطة. ولكن واضح أن أساس هذه التسمية يرجع الفضل فيه إلى سيبويه الذی يعدّ أول من لمح هذه الخواص لهذه الأصوات الأربعة. (المصدر نفسه: ۳۵۲) زد على هذا أن سيبويه نفسه قد صرّح بهذه البينية عند إشارته إلى صوت خامس ضمّه إلى هذه الأصوات، هذا الصوت الخامس هو<العين> يقول سيبويه: «وأما العين فبين الشديدة، والرخوة ...» (سيبويه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۵) فصارت الأصوات البينية أو المتوسطة خمسة يجمعها قولهم: <لم نرع>.

يبدو من كلام سيبويه حول صوت <العين> أنه أحس بأن هناک فرقاً من نوع ما بينه وبين الأصوات الأربعة، ودليل ذلک أنه أفرد له كلاماً مستقلاً، بادئاً بالأداة <أمّا> التی تدل على مغايرة اللاحق للسابق، وأنه نعته بالبينية بالتصريح فی خلاف الحال فی الأربعة الأولى، حيث اكتفى سيبويه فيها بتسجيل خواصها المتراوحة، أی المتراوحة بين الشدة والرخاوة. والأهم من ذلک أن سيبويه لم يصف <العين> بالشدة، ولم يحاول ضمها أو نسبتها إلى الأصوات الشديدة، بل على العكس تماماً مما صنع بالأصوات الأربعة <لم نر> وما فعله سيبويه هنا علاقة الإدراک الواعی لقيم هذه الأصوات وعمق التذوق لخواصها النطقية، ذلک أن الدرس الصوتی الحديث يقرر موكداً أن صوت العين لاعلاقة له بالأصوات الشديدة من قريب أو من بعيد، وأنه بمعايير التصنيف المقررة للأصوات، يعدّ صوتاً رخواً باصطلاحهم أو احتكاكی، غاية الأمر أن هذا الصوت الاحتكاكی نفسه، هی أقل الأصوات الاحتكاكية، فصوت <العين> إذن فيه شبهة الابتعاد عن الأصوات الاحتكاكية، وعن انتمائه فی الوقت نفسه نحو قبيل آخر، هو قبيل الأصوات التی يخرج هواؤها، حراً أو بأخرى وهی «اللام، والنون، والميم، والراء، ومن هنا ساغ لسيبويه وصف العين بالبينية.» (بشر، ۲۰۰۰م: ۳۵۳)

الإطباق والانفتاح

الإطباق، هو ارتفاع اللسان إلى أعلى الحنک، حتى يصير كالطبق له وحروفه: ص، ض، ط، ظ. (ردينى، ۲۰۰۲م: ۱۸۶) وتؤدى ظاهرة ارتفاع أقصى اللسان، وتراجعه إلى الخلف بإتجاه الجدار الخلفى للحلق عند وضع طرف اللسان فى مكانه من المخرج إلى تفخيم الصوت، وتتنوع بذلک أصوات طرف اللسان إلى أصوات مفخمة، وأصوات غير مفخمة (مرققة). (حسان، ۱۹۷۹م: ۸۹) لكن هذه الظاهرة أو الصفة الصوتية، يمكن أن تكون صفة مميزة مع بعض الأصوات، وأن تكون صفة مُحَسّنة مع أخرى، وقد تكون تنوعاً سياقياً، للصوت فى مواقعه المختلفة فى التركيب. وتجدر الإشارة إلى أن أصوات أقصى اللسان، وأصوات أدنى الحلق إلى الفهم، وهى «ق غ خ، أصوات مفخمة أيضا، لكن صفة التفخيم فيها محسنة، وليست مميزة، وتسمى صفة التفخيم المميزة بالإطباق، ويقابله الانفتاح.» (قدورى الحمد، ۲۰۰۲م، ۱۱۷)

تحدث سيبويه عن أصوات ذات صفات مميزة، وهى ما سماها أصوات الإطباق، وبين علة هذه النسبة، وقيمة هذه الصفة، وهى قيمة دلالية فى الأساس، إذ بها يتم التفريق بين الكمات المتناظرة التى تحتوى على هذه الأصوات، وعلى أخواتها المرققة، كما فى مثل طاب تاب، فالتاء صوت منفتح، وإذا صاحبه اطباق صار طاءً. قال سيبويه: «ومنها المطبقة والمنفتحة، فأما المطبقة فالصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والمنفتحة كل ما سوى ذلک من الحروف، لأنک لا تطبق لشيء منهن لسانک، ترفعه إلى الحنک الأعلى، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانک فى مواضعهن انطبق لسانک من مواضعهن إلى ما حاذى الحنک الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنک الأعلى، فإذا وضعت لسانک فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنک إلى موضع الحروف، وأما الدال، والزاى، ونحوهما، فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانک فى مواضعهن.

فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُينَ بحصر الصوت، ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، الصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شى ء من موضعها غيرها.» (سيبويه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۴۳۶)

إنّ هذه العبارة المشهورة لتبرز بوضوح شعوره بوظيفة هذه الضاد التمييزية، وبالعلاقه التقابليه التى تربطها، وهو ما أصبح اليوم من مشمولات علم الفونولوجيا، أى علم وظائف الأصوات. ولكن تجدر الإشارة إلى أن هذا الوصف لهذه الأصوات فى كلام سيبويه، مبنى على ما كان ينطق فى زمانه، والمناسب للنطق المعاصر أن يقال: ولولا الإطباق لصارت الطاء تاءً، والضاد دالاً ... إلخ.

ويشير علماء الأصوات المحدثون إلى أن اللسان يأخذ شكلاً مقعراً فى حاله الإطباق، فيرتفع من طرفه، ويتصعد من أقصاه. (بشر، ١٩٧١م: ١٢٩؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٤٧) ولعل هذا هو مراد سيبويه من قوله: «فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان.»

وهذه الأصوات المطبقة (وهى الضاد، والطاء، والصاد، والظاء) ضمّ إليها سيبويه ثلاثة أصوات أخرى وهى: «قاف، عين، خاء.» وسمّاها جميعاً أصوات الاستعلاء.[1]

وأشار إلى شىء من خواص هذه الأصوات السبعة فى التركيب، وبين أثرها على ما يجاورها، وبخاصة <ألف الإمالة> يقول: «هذا باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات التى أملتَها فيما مضى. فالحروف التى تمنعها الإمالة هذه السبعة: <الصاد، الضاد، الظاء، الطاء، الغين، القاف والخاء>، إذا كان حرف منها قبل الألف، والألف تليه. وذلک قولک: قاعد، وغائب، وخامد، وصاعد، وطائف، وضامن، وظالم، وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنک الأعلى. والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنک الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ١٢٨-١٢٩)

أنصاف الحركات (Vowels Semi)

يطلق هذا المصطلح علة <صوائت انزلاقية> يحدث فيها أن تبدأ الأعضاء بتكوين

١. هناک فوق بين صفة الإطباق وصفة الاستعلاء فى الأصوات الثلاثة (غ خ ق)، فالإطباق من الصفات المميزة، والاستعلاء الخالى من الإطباق من الصفات المحسنة، وإنما جمع العلماء الأصوات السبعة فى هذه الصفة لاشتراكها فى الوضع الذى يتخذه أقصى اللسان عند النطق بها، وهو الارتفاع الذى يترتب عليه تفخيم هذه الأصوات. (قدورى الحمد، ٢٠٠٢م: ١٣٦- ١٣٧)

<صائت ضيق> (كالكسره مثلاً) ثم تنتقل بسرعة إلى <صائت> آخر أشد بروزاً، ولا يدوم وضع الصائت الأول زمناً ملحوظا، والذى يدعو إلى إدراج هذه الأصوات تحت طبقة الصوامت هو ما تتميز به من انتقال سريع مع ضعف فى قوة النفس. (سعران، ١٩٦٢م: ١٨٠) وفى العربية صوتان ينطبق عليهما هذا الوصف هما الواو نحو (ثَور) والياء نحو (بَيت). «تتمثل الخواص الوظيفية لكل من الصوتين المذكورين فى أنهما يؤديان مهمة (الأصوات الصامتة) إذا وقعا ساكنين، وقبلهما فتحة، أو إذا كانا متبوعين بحركة.» (بشر، ١٩٧١م: ٨٣)

والحقيقة أن هذه الأصوات من حيث النطق والصرف تقترب من الحركات فى صفاتها، ولكنها فى التركيب الصوتى للغة تسلك مسلك الأصوات الصامتة، ومن هنا كانت تسميتها بأنصاف حركات، ويجوز تسميتها بأنصاف صوامت، ولكن المصطلح الأول المشهور. (بشر، ٢٠٠٠م: ٣٦٨)

وتكون صفة (الاحتكاك) سبباً فى خروج هذين الصوتين عن الصفة المدية بعض الخروج، ولكونهما أقل درجة فى قوة الأسماع. إذ ينشأ ضيق فى مجرى الهواء فى أثناء النطق بهما بسبب من ارتفاع اللسان، وأعاقته عن خروج الهواء بعض العوق، سمع شىء من الاحتكاك الخفيف عنه الصوتان. (الياء والواو) (مختار عمر، ١٩٧٦م: ٢٨٣)

وعلى الرغم من أن سيبويه قد حشر (الألف، والباء، والواو) ضمن ترتيب الأصوات الصامتة، وهو أمر لايمكن تسويغه لأن (الألف) صوت مد لاحيز له، و(الواو، والياء) ليست لهما إلاّ فى بعض الحالات صفة الأصوات الصامتة حين يكونان فى حاله نصف المد، لأنهما فى كثير من أحوالهما يعدان صوتى مدّ، فإنه قد فطن بملاحظته الدقيقة إلى ازدواجية صوتى <الواو>، و<الياء> إذا لاحظ أن «الألف لا تغير على كل حال، لأنها لوحركت صارت غير ألف، والواو، والياء تحركان ولا تغيران> ثم أنه أشار إلى أنّ <الألف> حرف لين اتسع مخرجه لهواء الصوت، مخرجه أشدّ من اتساع مخرج الياء، والواو، لأنک قد تضمّ شفتيک فى الواو، وترفع فى الياء لسانک قبل الحنک.» فهو وإن عقل ذكر دور اللسان فى إخراج الواو فقد أشار صراحة إلى وظيفة اللسان فى إخراج

الیاء، وإنّ تعبیره ب(قد) تعبیر دقیق عن وجود حال یجنح فیها صوتا الواو، والیاء عن أن یکون صوتی مدٍّ محض. وفی کلامه علی (الیاء) حین تحرکت إشارة لطیفة إلی أنها خرجت عن أن تکون صوت مد محض قال: لأنها – أی الیاء – لما تحرکت خرجت من أن تکون حرف لین، وصارت مثل غیر المعتل نحو(باء) ضربه، وبَعُدَ شبهُها من الألف. (حسن أحمد، ۱۹۹۶م: ۹۸ – ۹۹)

نخلص مما سبق إلی أن سیبویه قد فطن إلی فکرة تحول (الواو، والیاء) فی حاله المدّ المحض إلی حالة نصف المدّ وهذه الحقیقة التی توصل إلیها سیبویه أمر یقرّه البحث الصوتی الحدیث.

الأصوات اللینة

الصفة التی تختص بها أصوات حروف المدّ أوالحرکات هی: «کیفیة مرور الهواء فی الحلق، والفم، وخلو مجراه حوائل وموانع.» (أنیس، ۱۹۷۹م: ۲۶) وقد تعرف بـ (الصوائت). إن عدد الحرکات فی اللغة العربیة عبارة عن ثلاث حرکات طوال، وثلاث حرکات قصار، فیصبح مجموع الحرکات العربیة ست حرکات. وللعلماء العربیة فی القدیم شیء من الجهد غیر المنکور فی تعریف الحرکات فی اللغة العربیة، وبخاصة الحرکات الطوال التی سموها حروف المد وهی: الألف فی (قال)، والیاء فی (قیل)، والواو فی (یقول). ظهر اهتمام بالحرکات القصار: الفتحة، والکسرة، والضمة فی أول الأمر علی ید الشیخین الکبیرین أبی الأسود الدوئلی، والخلیل بن أحمد الفراهیدی، جاءت المبادرة الحقیقیة فی هذا الشأن من أبی الاسود الدوئلی، حیث وضع ما یعرف بنقاط الشکل – أی علامات ضبط الکلام – حفاظاً علی صحته نطقاً، وتجنباً للوقوع فی الخطأ، وبخاصة فی قراءة القرآن الکریم. ثم جاء الخلیل، وقام بخطوة أخری بارعة، واستبدل من نقاط الشکل تلک العلامات المعروفة: الفتحة، والضمة، والکسرة. (بشر، ۲۰۰۰م: ۴۲۰ –۴۲۱)

ولکن کانت عنایة العرب بحروف المد (حرکات الطوال)[1] أکثر من اهتمامهم بحرکات

۱. الحرکات الطوال مصطلح حدیث نسبیاً، یطلق علی ما یعرف فی القدیم بحروف المد.

القصار، يبدو أن له أسباباً: أهمها ما لاحظوه من تعرضها للتغير، والتبدل من سياق إلى آخر. فانكبوا على هذه الظاهرة، وعالجوها علاجاً موسعاً، لا من الناحية الصوتية فقط، بل امتد عملهم إلى الجوانب الصرفية، وعلى الرغم من نظرتهم الثاقبة، المتمثلة فى ربط الحركات القصار بحروف المد، لاشتراكها معها فى خاصتها الأساسية وهى: حرية مرور الهواء عند أدائها نطقاً، فإنهم لم يلتفتوا إليها التفاتاً كافياً، ينبىء عن موقعها بوصفها مكوناً مهماً من مكونات النظام الصوتى للغة، لقد نظروا إليها، وتعاملوا معها كما لو كانت شيئاً عارضاً، أوتابعاً للحروف الأصوات الصامتة، وليس للحركات استقلال، أو كيان خاص، بل عدّها بعضهم زوائداً، ليست أصلاً فى بناء الكلمة. (أنظر: بشر، ١٩٧١م: ١٩٠؛ أنيس، ١٩٧٩م: ٣٧)

لقد استطاع سيبويه بطريقة أو بأخرى أن يدرك أساس الفرق بين الصوامت، والحركات نعم إنه لم يتكلم كثيراً عن الحركات القصار، ولكنه تحدث عن الحركات الطوال، أو الحروف المد، وأدرک العلاقة بين الحركات القصار، والطوال وأنها من طبيعة واحدة، يقول سيبويه: «فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو.» (سيبويه، ١٩٩١م، ج٤: ٢٤٢) الحركات الطوال أو بتعبير سيبويه حروف اللين هى: «حروف المدّ التى يمدّ بها الصوت، وتلک الحروف: الألف، والواو، والياء.» (المصدر نفسه: ٤٢٦) ولهن أصوات أقصر منها، وهى حروف المدّ القصيرة، وقد وصفها سيبويه بأنها أجزاء من حروف المد الطويلة قال: «وإنما الحركات من الألف، والياء، والواو.» (المصدر نفسه: ١٠١) فأشار إلى خاصيتها الأساسيتين: الجهر، وحرية مرور الهواء من الفم بدون عائق أومانع، و«قادته هذه الفكرة إلى القول بمدّ الصوت بها وإنّ استعمال مصطلح <المدّ> قريب من مصطلح (Vowels) فى اللغة الإنكليزية الذى يحمل الدلالة نفسها. (حسن أحمد، ١٩٩٦م: ٩٦) يقول سيبويه تحت باب (الوقف فى الواو، والياء، والألف): «وهذه الحروف غير مهموسات، وهى حروف لين، ومدّ، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، وليس شيء من الحروف أوسع مخارج منها، ولا أمدّ للصوت، فإذا وقفْتَ عندها لم تضمها بشفة، ولا لسان، ولا حلق كضمّ غيرها، فيهوى الصوت إذا وجد متّسعاً حتى ينقطع آخره

فی موضع الهمزة.» (سیبویه، ۱۹۹۱م، ج۴: ۱۷۶)

ومما یکمل فهم سیبویه لطبیعة هذه الأصوات، وهو یتحدث عن صفات الحروف: «ومنها الهاوی، وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الیاء، والواو، لأنک قد تضم شفتیک فی الواو، وترفع فی الیاء لسانک قبل الحنک وهی الألف.» (المصدر نفسه: ۴۳۳)

النتیجة

لقد تطور علم الأصوات فی السنوات الأخیرة تطوراً سریعاً، وملحوظاً وذلک نتیجة للتطور الهائل فی الأجهزة الإلکترونیة، والتطور الهائل فی مجالات التصویر بالأشعة، وجهود العلماء المخلصین، ومع هذا کلّه فقد بقی علم الأصوات بکراً، فیه میدان واسع لکثیر من البحوث الجادة، لقد قام العلماء المسلمون (عرباً أو غیرعرب) بتسطیر صفحات مشرقة فی هذا المجال، دون أن یعتمدوا علی أجهزة الکترونیة، بل اعتمدوا أحاسیسهم بتجربتهم الذاتیة.

حاولت فیما قدمت من الدراسة أن أطل إطلالة عامة علی صنیع سیبویه فی الدرس الصوتی، وسعیت إلی أن أجری بعض المقارنات بقصد تبیین موقعه الصحیح بین ما توصل إلیه الدرس الصوتی الحدیث، ووصلت إلی أن سیبویه تنبه إلی أنّ اللغة قائمة علی مبدأ العلاقات، وأن بنیة هذا النظام هی الأصوات. تناول الأصوات المنطوقة للوصف، فبین عددها، وحدد مخارجها اعتماداً علی السمع، والنطق، وعلی الرغم من عدم معرفته بدور الوترین الصوتین فی التحکم بطبیعة الصوت، فإن النتائج التی توصل إلیها فی میدان وصف الأصوات، لم تکن فی معظمها بعیدة عن وصف المحدثین، الذین یعتمدون علی تجارب مختبر الصوت، واعتمد فی دراسته لأصوات العربیة علی الجانب الفسیولوجی، أو النطقی فی الأساس، وهو جانب لم یزل ذا أهمیة بالغة فی نظر الدارسین المحدثین، وإن کان هؤلاء المحدثون قد أخذوا فی الحسبان جوانب أخری فی تحلیل الأصوات اللغویة، ذلک مثلاً الجانب الفیزیایی أو الآکوستیکی الذی ظهرت أهمیته البالغة فی التعرف علی طبائع الأصوات، ومکوناتها الحقیقیة.

المصادر والمراجع

أنيس، إبراهيم. ١٩٧٩م. *الأصوات اللغوية*. الطبعة الخامسة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

ابن جنى، أبو الفتح عثمان. لاتا. *الخصائص*. تحقيق محمد على النجار. الطبعة الثانية. بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر.

باى، ماريو. ١٩٧٣م. *أسس علم اللغة*. ترجمه أحمد مختار عمر. طرابلس: منشورات جامعه طرابلس، كلية التربية.

بشر، كمال. ١٩٧١م. *علم اللغة العام: الأصوات*. الطبعة الثانية. مصر: دارالمعارف.

بشر، كمال. ٢٠٠٠م. *علم الأصوات*. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

بشر، كمال. ١٩٧٥م. *جهود العرب فى الدراسات الصوتية*. مجلة الثقافة العربية. العدد الرابع. السنة الثانية. ليبيا: مجلس الثقافة العام بالجماهيرية الليبية.

بشر، كمال. لاتا. *الأصوات عند سيبويه*. ١٦ مقاله تحقيقى به زبان عربى درباره سيبويه. به اهتمام احمد افشار شيرازى. شيراز: انتشارات دانشگاه شيراز.

حسان، تمام. ١٩٥٨م. *اللغة بين المعيارية والوصفية*. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

حسان، تمام. ١٩٧٩م. *مناهج البحث فى اللغة*. الدار البيضاء: دارالثقافة.

حسن أحمد، نوزاد. ١٩٩٦م. *المنهج الوصفى فى كتاب سيبويه*. الطبعة الأولى. بنغازى: منشورات جامعة قاريونس دار الكتب الوطنية.

سعران، محمود. ١٩٦٢م. *علم اللغة مقدمة اللقارىء العربى*. القاهرة: دار المعارف.

سيبويه، عمرو بن عثمان. ١٩٩١م. *الكتاب*. تحقيق عبدالسلام هارون. الطبعة الأولى. بيروت: دارالجيل.

ردينى، محمد على عبدالكريم. ٢٠٠٢م. *فصول فى علم اللغة العام*. الطبعة الأولى. بيروت: عالم الكتب.

زوين، على. ١٩٨٦م. *منهج البحث اللغوى بين التراث وعلم اللغة الحديث*. العراق: دار الشؤون الثقافة العامة.

ضيف، شوقى. ١٩٦٨م. *المدارس النحوية*. الطبعة الثانية. مصر: دارالمعارف.

الفراهيدى، الخليل بن أحمد. ١٩٨٨م. *العين*. تحقيق مهدى مخرومى وإبراهيم سامرائى. بيروت: مؤسسة الأعلمى للمطبوعات.

قدرو، أحمد محمد. ٢٠٠١م. *اللسانيات وآفاق الدرس اللغوى*. الطبعة الأولى. دمشق: دارالفكر.

قدورى الحمد، غانم. ٢٠٠٢م. *المدخل إلى علم أصوات العربية*. بغداد: منشورات المجمع العلمى.

قدورى الحمد، غانم. ١٩٨٦م. *الدراسات الصوتية عند علماء التجويد*. بغداد: مطبعة الخلود.

كانتينيو، جان. ۱۹۶۶م. *دروس فی علم أصوات العربية*. ترجمة صالح القرمادی. تونس: نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية.
مختار عمر، أحمد. ۱۹۸۸م. *البحث اللغوی عند العرب*. الطبعة السادسة. القاهرة: عالم الكتب.
مختار عمر، أحمد. ۱۹۷۶م. *دراسة الصوت اللغوی*. الطبعة الأولی. القاهرة: مطابع سجل العرب.
مخزومی، مهدی. ۱۹۸۶م. *الخليل بن أحمد الفراهيدی، أعماله ومنهجه*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الرائد العربی.
مونين، جورج. ۱۹۷۲م. *تاريخ علم اللغة*. ترجمه بدرالدين القاسم. دمشق: مطبعة جامعة دمشق.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی